(٤٧)

"وِصال"

حياة سعيدة ظنتها هى الغاية التى ما أن وصلت إليها فلن تفتقد شيئًا بعدها، وبعد انسكاب كاسات السعادة لتشرب منها ما تشاء، أحست أن البئر الذى اغترفتها منه أوشك على الانتهاء، فخشيت أن يضيع بريق الحياة الذى ظل متلألئًا على مدار سنواتٍ طويلةٍ بالمال الوفير الذى تشترى به كل ما تحب أن تقتنيه، وكل ما اعتادت أن تفنيه. ومع تقدم العمر بدأت تتوجس خيفةً من فقدان الأبناء الذين تزايد عددهم تكاثرًا كان ظاهره القوة، وباطنه الأنانية والطمع. كانت مظاهر الحياة المُلهِية قادرة على أن تشغلها عن سر وجودها الحقيقي، فألهتها بتزايدها المستمر وتواصلها غير المنقطع إلى أن فقدت أصغر أبنائها الذى راح ضحية مرضٍ خبيثٍ فاجأه على غِرة، ولم يكتفِ بإرباك كل من حوله، بل كان سببًا فى أن تتوقف حياتها هى الأخرى مع آخر نبضة من نبضات قلبه الصغير. ومنذ تلك اللحظة بدأت تستعيد ذكريات حياتها المرفهة والسعيدة، وكأنها لم تعش لحظة سعادة واحدة، وكأن كل النعيم الذى تمتعت به لم يكن ولم يمر عليها.

ومع طول جلوسها بمفردها وعزوفها عن كل متاع الدنيا الذى كان يسعدها من قبل، لم يكن يجول فى خاطرها سوى انتظار الموت الذى اصطحب ابنها بعيدًا عنها بلا استئذان. وبعد ترقبٍ طويلٍ لزيارة الموت لها فى منامها أو

بعد صحوها، تذكرت ذات يومٍ أحد أقربائها الذى لم يتزوج، ولم ينهل من نعماء كان من الممكن أن ينغمس فيها مثلما فعلت هى وبقية أفراد أسرتها، وقررت أن تسأل عنه وعن أحواله، فعلمت بموته منذ أعوام فى هدوء وبلا ضجيج أو صخب، فعزمت على زيارة قبره بعد انتهاء إطلالتها على قبر ابنها الفقيد. وعند اقترابها من مقبرة قريبها المعتزل، فاجأها ذلك العدد الوفير من زوار قريبها الذى مضت على وفاته عدة سنوات، ولما سألت عن سر ذلك التزاحم عند قبره، علمت أن معظم هؤلاء هم من تلاميذه الذين كان يُعلمهم بلا أجر، ويرعاهم بلا مقابل، ويشفق على كثيرٍ منهم بلا إعلان، وأنهم يجتمعون لزيارته والدعاء له مرة كل أسبوع، وأنهم أكملوا بناء المؤسسة التربوية والخدمية التى وضع أساساتها قبل موته، لتنشر فكره وتترجم عمليًا ما أفنى عمره فى كتابته ليفيد به من حوله من البشر الذين قد يلهيهم متاع الحياة الرغدة، أو تشقيهم مصاعبها، عن الاهتمام بالغاية الحقيقية من وراء وجودهم أحياءً لبرهةٍ ستظل قصيرة مهما شعر الإنسان بطول زمانها.

وبدأت فى قراءة ما كتبه قريبها المفكر الزاهد، حتى أنهت الإطلاع على كل كتاباته، ومع انتهائها من قراءة كل كتابٍ له، كانت تشعر بالسكينة قد ملأت جسدها وعمَّت أوصالها، لتزيح عنها ما كان يثقل جسدها من هموم، ويقعد أطرافها عن التحرك بحرية. لقد كانت لذة الوصال بعد انقطاع هى حبل النجاة الذى ألقاه إليها قريبها بعد موته، مثلما ألقاه لكل من يريد أن يتلقى طرفه ليقبل على فهم معنى الحياة، ويكون مستعدًا للتلقى الذى سيمكنه من الارتقاء على الدنايا، والتعلق بحسن السجايا الموصلة لطيب الحياة الخالدة.